الأحد 3/1/2010

الشيخ محمد خير الشعَّال

سلسلة مكارم الأخلاق

أهمية الأخلاق

بسم الله الرحمن الرحيم الحمد لله رب العالمين، وأفضل الصلاة، وأتم التسليم على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، اللهم علمنا ما ينفعنا وانفعنا بما علمتنا وزدنا علماً وعملاً متقبلاً يا أكرم الأكرمين. أرنا الحق حقاً وارزقنا اتباعه، وأرنا الباطل باطلاً وارزقنا اجتنابه. نسألك علم الخائفين منك، وخوف العالمين بك وبعد:

نتحدث في هذه السلسلة عن مقدمات تتعلق بالأخلاق من حيث:

- أهمية الأخلاق دراسة وتدريساً وتعلماً وتعليماً.
- كيف يتخلق الإنسان بالأخلاق الحميدة ويتخلى عن الأخلاق الرذيلة.
- فوائد التخلق بالأخلاق الحسنة، وكيف أن الأخلاق الرفيعة أو السيئة تقرب العبد من الله تعالى أو تبعده عنه.
- كيف يتبصر الإنسان بعيوب نفسه وأخلاقه.

ثم ننطلق بعد هذه المقدمات في أخلاق عملية: نتحدث في كل خلق على حدة، بين تعريف وشواهد ودلائل، وكيف التحلي بالخلق إن كان حسناً، وكيف التخلي عنه إن كان سيئاً.

درسنا اليوم عن: **أهمية الأخلاق.**

الخلق لغة: السجية والطبع.

اصطلاحاً: صفة في النفس راسخة تصدر عنها الأفعال بسهولة ويسر من غير حاجة إلى فكر وروية.

لو استقرأنا آيات القرآن الكريم كاملة، والأحاديث النبوية كافة لوجدناهما يصبَّان في محاور ثلاثة:

أ- **عقيدة:** فمن كان يعبد الحجر أو القمر أو الشجر أو النار أو مخلوقات من دون الله... جاء الإسلام ليصحح لهم معتقدهم ليقول لهم: لا إله إلا الله محمد رسول الله، جاعلاً معبودهم الحق هو رب العالمين جل جلاله.

ب- **شريعة:** فالشريعة فيها نجاة للناس عامة لما فيها من تعليم لكيفية التعامل في البيت أو في السوق التجاري أو في القضاء أو في التقرب إلى الله بصلاة أو صوم أو زكاة أو حج أو سياسة شرعية...

ت- **أخلاق:**

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**إِنَّمَا بُعِثْتُ لِأُتَمِّمَ مَكَارِمَ الْأَخْلَاقِ**» [البيهقي].

فرسول الله صلى الله عليه وسلم سَيُقِرُّ الأخلاق الحسنة التي كانت في الجاهلية ويتممها وسينفي الأخلاق السيئة.

تأتي أهمية الأخلاق من عدة جوانب:

1- تقرباً إلى الله تعالى، وإلى رسوله صلى الله عليه وسلم.

✓ عَنْ أُسَامَةَ بْنِ شَرِيكٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ: **كُنَّا جُلُوسًا عِنْدَ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كَأَنَّمَا عَلَى رُؤُوسِنَا الطَّيْرُ، لَا يَتَكَلَّمُ مِنَّا مُتَكَلِّمٌ إِذْ جَاءَهُ نَاسٌ مِنَ الْأَعْرَابِ، فَقَالُوا: ... يَا رَسُولَ اللَّهِ فَمَنْ أَحَبُّ عِبَادِ اللَّهِ إِلَى اللَّهِ؟ قَالَ:** «أَحْسَنُهُمْ خُلُقًا» [الحاكم].

ربما كان لإنسان حج متتابع وصلاة وصوم جيدان لكن أخلاقه صعبة وضيقة وعَسِرَة فهذا الإنسان مع كثرة طاعاته لكنه بسوء خلقه لن يكون قريباً من الله تعالى القرب المطلوب، فما شُرِعَتْ أركان الإسلام إلا لتقويم المعاملات والأخلاق.

قال تعالى: ﴿إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ﴾ [العنكبوت: 45] فلا بد أن تنهاك صلاتك عن الفُحْشِ في الكلام، وفي النظر، وفي التصرفات أما إذا بقي المصلي على فُحْشِ كلامه وتصرفه ومنظره فهذا في صلاته نقص.

رُوِيَ عَنْ حَارِثَةَ بْنِ وَهْبٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ قَالَ: «قَالَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ: لَيْسَ كُلُّ مُصَلِّيْ يُصَلِّيْ إِنَّمَا أَتَقَبَّلُ الصَّلَاةَ مِمَّنْ تَوَاضَعَ بِهَا لِعَظَمَتِيْ وَعَفَّ شَهَوَاتَهِ عَن مَحَارِمِيْ وَلَمْ يُصِرَّ عَلَى مَعْصِيَتِيْ وَأَطْعَمَ الجَائِعَ وَكَسَا الْعُرْيَانَ وَرَحِمَ الْمُصَابَ وَآوَى الْغَرِيبَ كُلَّ ذَلِكَ لِيْ» [الديلمي في الفردوس].

وبرواية: «إِنَّمَا أَتَقَبَّلُ الصَّلاةَ مِمَّنْ تَوَاضَعَ بِهَا لِعَظَمَتِي وَلَمْ يَسْتَطِلْ عَلَى خَلْقِي وَلَمْ يَبِتْ مُصِرًّا عَلَى مَعْصِيَتِي وَقَطَعَ نَهَارَهُ فِي ذِكْرِي وَرَحِمَ الْمِسْكِينَ، وَابن السَّبِيلِ وَالأَرْمَلَةَ وَرَحِمَ الْمُصَابَ ذَلِكَ نُورُهُ كَنُورِ الشَّمْسِ أَكْلَؤُهُ بِعِزَّتِيْ وَأَسْتَحْفِظُهُ مَلَائِكَتِيْ أَجْعَلُ لَهُ الظُّلْمَةَ نُورًا وَفِي الْجَهَالَةِ حِلْمًا وَمَثَلُهُ فِي خَلْقِي كَمَثَلِ الْفِرْدَوْسِ فِي الْجَنَّةِ» [البزار في المسند عن ابن عباس].

فآثار الصلاة العملية أخلاق حسنة فإذا كان الإنسان يصلي من عشر سنوات وما زالت أخلاقه ومعاملاته مع أهله سيئة جداً فهذا لم يعرف المعنى الحقيقي للصلاة بعد.

- اتصلت امرأة بشيخ لتشتكي زوجها المصلي الذي يضربها على وجهها.
- جاء رجل ليشكو امرأته التي غادرت البيت من أربعة أشهر وترفض أن تعود إليه إلا بعد أن يُحضر لها قطعة جديدة من الذهب مع تغيير أثاث البيت وكل ذلك لأنها حملت بمولود بعد سنوات وزوجها يحب الأطفال.
- رجل يصوم لكنه إذا استُغْضِبَ غضب بطريقة لا ترضي الله ولا رسوله فتراه يتكلم بالكلام الفاحش، ويقلب المنضدة ويضرب يده بالزجاج ليشقها.

لا قربة لنا إلى الله إلا بأخلاقنا الحسنة، وما شُرعت الزكاة إلا لتحسين الأخلاق من الشح والبخل والقبض والتقتير، وما شُرع الصوم إلا ليدربنا على الصبر وعلى المكروه وكيف نحبس أنفسنا بالعطش عن المحبوبات من الماء البارد والطعام الشهي.

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «لَيْسَ الصِّيَامُ مِنَ الْأَكْلِ وَالشُّرْبِ إِنَّمَا الصِّيَامُ مِنَ اللَّغْوِ وَالرَّفَثِ، فَإِنْ سَابَّكَ أَحَدٌ، وَجَهِلَ عَلَيْكَ فَقُلْ: إِنِّي صَائِمٌ» [الحاكم والبيهقي].

عَنْ أَبِي الدَّرْدَاءِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ: سَمِعْتُ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: «مَا مِنْ شَيْءٍ يُوضَعُ فِي الْمِيزَانِ أَثْقَلُ مِنْ حُسْنِ الْخُلُقِ، وَإِنَّ صَاحِبَ حُسْنِ الْخُلُقِ لَيَبْلُغُ بِهِ دَرَجَةَ صَاحِبِ الصَّوْمِ وَالصَّلَاةِ» [الترمذي].

عَنْ جَابِرٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «إِنَّ مِنْ أَحَبِّكُمْ إِلَيَّ وَأَقْرَبِكُمْ مِنِّي مَجْلِسًا يَوْمَ القِيَامَةِ أَحَاسِنَكُمْ أَخْلَاقًا، وَإِنَّ أَبْغَضَكُمْ إِلَيَّ وَأَبْعَدَكُمْ مِنِّي مَجْلِسًا يَوْمَ القِيَامَةِ الثَّرْثَارُونَ وَالمُتَشَدِّقُونَ وَالمُتَفَيْهِقُونَ»، **قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، قَدْ عَلِمْنَا الثَّرْثَارُونَ وَالمُتَشَدِّقُونَ فَمَا المُتَفَيْهِقُونَ؟ قَالَ:** «المُتَكَبِّرُونَ» [الترمذي].

عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُوْدٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «أَنَا فَرَطُكُمْ عَلَى الحَوْضِ، وَلَيُرْفَعَنَّ مَعِي رِجَالٌ مِنْكُمْ ثُمَّ لَيُخْتَلَجُنَّ دُونِي، فَأَقُولُ: يَا رَبِّ أَصْحَابِي، فَيُقَالُ: إِنَّكَ لاَ تَدْرِي مَا أَحْدَثُوا بَعْدَكَ» [البخاري].

فَرَطُكُمْ: هو الذي يتقدم الواردين ليُصلح لهم الحِيَاضَ والدِّلاء ونحوها من أمور الاستقاء.

فلن يأتي إلى الحوض من لم يَزُرْ والده من عشر سنوات، أو من كان في خصومة بينه وبين والده من سنة، أو اعتدى على أموال إخوته في الإرث، أو اقترض مالاً ولم يرد للناس أموالهم مع القدرة...

✓ جَرَتِ العادة أن كل اثنين تجانسا تجالسا ففي المدارس تجد المجتهدين مع بعضهم، والمقصرين مع بعضهم، والمؤدبين مع بعضهم... وكذلك يوم القيامة من أراد أن يكون مع من اتصف بأحسن الأخلاق وهو سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم فيجب عليه أن يكون من أصحاب الخلق الحسن.

عَنْ عُمَرَ بْنِ الخَطَّابِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أَنَّه سُئِلَ عَنْ قَوْلِهِ: ﴿وَإِذَا النُّفُوسُ زُوِّجَتْ﴾ **قَالَ: يُقْرَنُ بَيْنَ الرَّجُلِ الصَّالِحِ مَعَ الصَّالِحِ فِي الْجَنَّةِ وَيُقْرَنُ بَيْنَ الرَّجُلِ السُّوءِ فِي النَّارِ، فَذَلِكَ تَزْوِيجُ الْأَنْفُسُ** [تفسير ابن أبي حاتم].

فيجب عليك أن تزيد من أخلاقك وترفع من سويَّتها؛ حتى تستطيع أن تجلس مع الكُمَّل أما إذا كانت أخلاق المؤمن غير جيدة وحملناه لنجلسه أمام رسول الله صلى الله عليه وسلم لوجدته يريد الابتعاد، كمثل الطالب الكسول إذا أُجلس في المقعد الأول بجوار المدرس فتراه يطلب أن يؤخر للوراء وكذلك صاحب الخلق السيئ لو أجلس بجوار رسول الله صلى الله عليه وسلم لاعتذر وطلب الابتعاد.

2- غرس الفضائل في النفوس والتمسك بها والابتعاد عن الرذائل:

يقول أحمد شوقي:

وإنما الأممُ الأخلاقُ مـــــا بَقِيَتْ ... فـــإن هُمُ ذهبتْ أخلاقُهم ذهبـــوا

وإذا أصـــيب القـــوم في أخلاقهم ... فـــــأقم عليهم مأتماً وعـــــويلا

صـــلاح أمـــرِك للأخلاق مرجِعُـــهُ ... فقـــوِّمِ النفس بالأخلاق تســـتقِم

فبقدر ما تتحلى به من أخلاق فاضلة بمقدار ما ترتفع منزلتك في الدنيا والآخرة، وبقدر ما تتخلى عن الفضائل وتتمسك بالرذائل بمقدار ما تهبط منزلتك.

✓ كم من شباب تخرجوا من جامعات أو معاهد عملوا في أماكن كان سبب تَرَقِّيهِمْ ورِفْعتُهم أخلاقهم لا شهاداتهم العلمية.

كم من صاحب معمل ومدير شركة وتاجر كبير زوج ابنته الوحيدة وأعطى جميع ثروته لأحد عماله ليس بسبب شهادته بل بسبب أمانته وأخلاقه العالية.

كم من أبناء لهم آباء أثرياء بسوء خلقهم حملوا آباءهم إلى أن يتخلوا عنهم.

جمال المنظر مؤقت لكن جمال الروح والأخلاق دائم بل هو في زيادة دائمة، فكلما تخلقت بآداب أكثر كلما ارتقت منزلتك في الدنيا والآخرة.

✓ أقسم الله في سورة الشمس أحد عشر يميناً لمسألة واحدة هي: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا * وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا﴾ [الشمس: 9-10].

فأقسم الله أن من زَكَّى نفسه بالأخلاق الفاضلة من غض البصر، وحفظ الأمانة، والتزام الوعود، وسلامة الصدر، والإحسان للخلق، والعمل الصالح... فسينجح بالدنيا والآخرة، وبالمقابل من تخلق بالأخلاق الفاحشة سيَخِيب كائناً من كان.

المال لا يرفعك بدون الأخلاق، والجاه لا يرفعك بدون الأخلاق وقد جاء عن سيدنا علي رضي الله عنه أنه قال:

كن ابن من شئت واكتسب أدباً ... يُغْنِيكَ مَحْمُودُهُ عَنِ النَّسَبِ

فليس يغني الحسيب نسبته ... بلا لسانٍ له ولا أدب

إن الفتى من يقول ها أنا ذا ... ليسَ الفَتَى مَنْ يقولُ كان أبي

وإن الأدب ليرفع المملوك حتى يجلسه في مجالس الملوك، وإن قلة الأدب لتهبط بالرجل العَلِي إلى المكان الدني.

أحياناً ترى إنساناً يعجبك منظره من شكل وثوب ومال وسيارة ووسامة وقوة... حتى إذا تكلم نطق بكلام فاحش فيسقط من عينك، وأحياناً تجد إنساناً بسيط الملبس والمجلس دميم الخلقة لكن إذا تكلم بزَّ القائلين وصمت الجميع ليسمعه.

✓ كل منا قابل للتخلق بالأخلاق الحسنة أو الأخلاق السيئة، والتنشئة والتربية تذهب به نحو أهل اليمين أو نحو أهل الشمال.

عَنْ أَبِيْ هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**مَا مِنْ مَوْلُودٍ إِلَّا يُولَدُ عَلَى الفِطْرَةِ، فَأَبَوَاهُ يُهَوِّدَانِهِ، وَيُنَصِّرَانِهِ، أَوْ يُمَجِّسَانِهِ، كَمَا تُنْتَجُ البَهِيمَةُ بَهِيمَةً جَمْعَاءَ، هَلْ تُحِسُّونَ فِيهَا مِنْ جَدْعَاءَ**» **ثُمَّ يَقُولُ أَبُو هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ:** ﴿فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لاَ تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ القَيِّمُ﴾ [الروم: 30]، [رواه البخاري].

3- بيانُ أهمية الأخلاق وإيضاح فوائدها الدينية والدنيوية.

فللصدق فوائد كثيرة في الدنيا والآخرة.

يقول أحد كبار رجال السياسة والاقتصاد والفكر بشأن الأزمة العالمية الاقتصادية: (**إن الأزمة الحالية منشأها أخلاقي وليس اقتصادي**).

تجد رجلاً مليئاً بالمال ثم يغش الزبون لأجل مبلغ زهيد لا قيمة له، أو يسرق اللقمة من فم أخيه وهو شبعان.

عَنْ أَنَسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، عَنْ رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «**إِنَّ الْعَبْدَ لَيَبْلُغُ بِحُسْنِ خُلُقِهِ عَظِيمَ دَرَجَاتِ الْآخِرَةِ، وَشَرَفَ الْمَنَازِلِ، وَإِنَّهُ لَضَعِيفُ الْعِبَادَةِ، وَإِنَّهُ لَيَبْلُغُ بِسُوءِ خُلُقِهِ أَسْفَلَ دَرَجَةٍ فِي جَهَنَّمَ**» [الطبراني في الكبير].

4- بيانُ أنَّ سيدَنا محمداً صلى الله عليه وسلم أحسن الناس خلقاً:

كلما اقتديت برسول الله صلى الله عليه وسلم وتأسيت به وَلَزِمْتَه وتبِعْتَه كلما ارتفعت درجات عالية في الدنيا والآخرة فلن تجد أكمل من أخلاقه ولا أحسن من صفاته ولا أكمل من سماته صلى الله عليه وسلم.

لو ذهب الإنسان ليقتدي بإنسان مثله سواء كان مفكراً شرقياً أو فيلسوفاً غربياً أو مطرباً أو لاعباً أو ممثلاً... فأنت تهبط بمستواك.

5- تأصيلُ الأخلاق الفاضلة:

فنرى ما هو الأصل الشرعي لكل خلق من الأخلاق الفاضلة فمثلاً:

الصبر يقول الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ [البقرة: 153].

التعاون يقول تعالى: ﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ﴾ [المائدة: 2].

الصدق يقول الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ﴾ [التوبة: 119].

وهكذا... سنسمع التأصيل الشرعي لهذه الأخلاق الفاضلة حتى يعتزُّ أحدُنا بهذا الدين الذي يقرر هذه الأخلاق في زمن صار العالَم فيه يَئِنُّ من قلة الأخلاق، حتى جعلوا مواداً تعليمية في الجامعات تدرس اسمها: الأخلاق كمادة أخلاقيات الطب للأطباء جراء قصص صدرت من بعض المثقفين والحاصلين على الشهادات العالية:

- فترى طبيباً غربياً وأستاذاً جامعياً قتل ثمانين مريضاً في عيادته.
- الممرضات الغربيات الأوربيات هن اللواتي حَقَنَّ الإيدز للأطفال.
- بعض المِعْنِيّينَ في مؤسسة الصحة لإنقاذ بعض البلاد الفقيرة من الإيدز والفاحشة وجدوهم هم أنفسهم يرتكبون الزنا مع نساء تلك البلاد الفقيرة.
- طائرات الجراحة تطير من الغرب إلى بلاد الشرق الفقيرة ليتاجروا بالأعضاء.

مهندسٌ ومحامٍ وزوجٌ من دون أخلاق لا ينفعون ولعلهم يكونون كالوحوش بل لعل الوحش أحسن منه.

عَنْ عُمَرَ بْنِ الخَطَّابِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ **أَنَّ رَجُلًا، مِنَ اليَهُودِ قَالَ لَهُ: يَا أَمِيرَ المُؤْمِنِينَ، آيَةٌ فِي كِتَابِكُمْ تَقْرَءُونَهَا، لَوْ عَلَيْنَا مَعْشَرَ اليَهُودِ نَزَلَتْ، لاَتَّخَذْنَا ذَلِكَ اليَوْمَ عِيدًا. قَالَ: (أَيُّ آيَةٍ؟) قَالَ:** ﴿اليَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلاَمَ دِينًا﴾ [المائدة: 3] **قَالَ عُمَرُ: (قَدْ عَرَفْنَا ذَلِكَ اليَوْمَ، وَالمَكَانَ الَّذِي نَزَلَتْ فِيهِ عَلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَهُوَ قَائِمٌ بِعَرَفَةَ يَوْمَ جُمُعَةٍ)** [البخاري ومسلم].

فالله تفضل علينا عندما خاطبنا وكلمنا وأرسل لنا كتابه ونبينا سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم.

نسأل الله أن يحسن أخلاقنا وأن يوسع أرزاقنا وأن يجعل لنا نصيباً من أخلاق سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم.

وصلَّى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلَّم.

والحمد لله رب العالمين.